حول «ملاءمة العقيدة للعقل»: لاينتز ضد بايل

بول راتو

ترجمة: الطاهر بن قيزة

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018

تقديم

نقدم للقارئ العربي هذا النص لبول راتو (Paul Rateau)، وهو أستاذ الفلسفة الحديثة بالسوربون، ورئيس جمعية الدراسات اللايبنتزية باللغة الفرنسية، (https://leibnizsellf.org) وهو مختص في فلسفة غوتفريد ويلام لايبنتز.

الملاحظ أن النصوص المشار إليها في هذا المقال، مثل **المعجم التاريخي والنقدي لبيار بايل** (Pierre Bayle) و**المقالة في ملاءمة العقيدة إلى العقل** للايبنتز (Leibniz) غير منقولة إلى العربية. وقد قمنا بترجمة نص **المقالة** منذ مدة، غير أننا نرى أن مثل هذه النصوص تبقى غير ذات فائدة إن قدمت دون شرح وتعليق، ونعد القارئ العربي أننا سنقوم بنشر هذا العمل في أقرب الآجال.

حظي لايبنتز ببعض الاهتمام في الأوساط الأكاديمية العربية ونشرت بعض أعماله؛ نذكر منها:

- جورج طعمة: **فلسفة لايبنتز مع ترجمة للمونادولوجيا ونصوص أخرى**، دمشق، مكتبة الأطلس، الطبعة الأولى سنة، الطبعة الثانية سنة1955

- ألبير نصري نادر، **المونادولوجيا أو مبادئ الفلسفة وبذيله المبادئ العقليّة للطبيعة والنعمة** ترجمه إلى العربيّة. بيروت، اللجنة الوطنية لترجمة الروائع الإنسانيّة. 1956

- عبد الغفار مكاوي، **المونادولوجيا والمبادئ العقليّة للطبيعة والفضل الإلهي**. ترجمه وتقديم وتعليق، تقديم فؤاد زكريا، سلسلة النصوص الفلسفية، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة، 1974

- علي عبد المعطي محمد: **لايبنتز، فيلسوف المونادة**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1980

- أحمد فؤاد كامل، **محاولات جديدة في ملكة الفهم البشري**، ترجمه وتقديم وتعليق، كلية الآداب، دار الثقافة للطباعة والنشر، فاس - المغرب، 1983

- الطاهر بن قيزة، **مقالة في الميتافيزيقا**، المنظمة العربية للترجمة، 2006

أما أعمال بيار بايل، فقد بقيت مجهولة تماما، ولم ينقل منا حسب علمنا أيّ نص إلى العربية ! وقد ناقش الحبيب عز الدين تحت بإشراف جلال الدين سعيد المختص في فلسفة سبينوزا بالجامعة التونسية، أطروحة حول فلسفة بايل بعنوان: «**الإيمان والعقل في فكر بيار بايل**».

من فضائل نص بول راتو الذي نقدم ترجمته هاهنا، إبراز أهم معالم موقف بايل الإيماني ومعالم فلسفة لايبنتز العقلانية في دفاعها عن اتفاق العقل مع العقيدة. يظهر ذلك بصورة جلية في **المقالة التمهيدية حول اتفاق العقيدة مع العقل** التي كانت مقدمة لمؤلف لايبنتز الشهير (Théodicée)، والذي ترجمناه في تعريبنا **لمقالة في الميتافيزيقا بـمقالات في عدل الله**، والذي نترجمه في هذا النص لبول راتو بـ**التيوديسيا**؛ أي بنقل حرفي للكلمة اللاتينية التي استعملها لايبنتز، وهي أقرب إلى روح النص اللايبنتزي، والذي ليس له مقابل في الثقافة العربية.

حول «ملاءمة العقيدة للعقل»: لايبنتز ضد بايل[1]

لقد كان **للمعجم التاريخي والنقدي** لبايل (Bayle) الذي نشر لأوّل مرة، كما هو معلوم، سنة 1696-1697، ثم أعيد نشره في 1702، صدى في عالم الآداب. ويروي لايبنتز (Leibniz) أن هذا الكتاب قد قُرئ ونوقش في بلاط ملكة بروسيا **صوفيا شارلوت** (Sophie-Charlotte)، وأن هذه الحوارات وهذه النقاشات كانت مصدر كتابته **التيوديسيا**[2]. وقد نشأت بين بايل ورجال الدين البروتستانتيين: إسحاق جاكولو (Isaac Jaquelot) وجون لوكلار (Jean Le Clerc)، جدال طويل مرير؛ فقد كان هؤلاء يعيبون على بايل دفاعه عن تناقض عسير التجاوز بين العقيدة والعقل، وعن عبثية مبادئ الدين المسيحي حين نقارنها بمبادئ الفلسفة، وهم يدينون دفاعه عن إيمانية جذرية تبدو لهم مُريبة.

وقد تابع لايبنتز الجدال وأجوبة الطرفين وردودهم؛ لكنه رغم إلحاح بعضهم، رفض المشاركة في تلك المناظرة بطريقة علنيّة، لأنه رأى من غير المناسب اتخاذ موقف في صالح ملاءمة العقيدة للعقل، وهي ملاءمة كان يمكن، [حسب رأيه]، أن تدفع بباييل «إن كان ذلك ممكنا، إلى إظهار الصعوبات التي ارتآها في أرقى مظاهرها»[3]. وكان يمكن أن يؤدي ذلك إلى إثارة فكره ووَلَعِه بالتناقض؛ هل كان ذلك ناتجا من حذر [لايبنتز]؟ وهل كان ذلك هوسا بعدم استفزاز خصم قادر، من جهة أخرى، على خدمة قضية الدين؟ ليست هذه الدواعي وحدها كافية [لتفسير موقف فيلسوف هانوفر].

1 Paul Rateau « Sur la conformité de la foi avec la raison: Leibniz contre Bayle », Revue philosophique de la France et de l'étranger, 2011/4 (Tome 136), p. 467-485

2 يذكر لايبنتز ذلك في رسالة إلى طوماس بورنات (Th. Burnett) بتاريخ 30 أكتوبر 1710، نشرت في الأعمال الفلسفية الكاملة للايبنتز التي أصدرها جيرهالت في (Die philosophischen Schriften) (GP), Gerhardt, t. III, p. 321.

3 لايبنتز، رسالة إلى باسناج، 19 فيفري 1706، À Basnage (19 février 1706), GP III, p. 144.

يمكن تقديم تفسير آخر[4]؛ ففي الوقت الذي كان فيه لايبنتز قادرا على الرد على بايل (كما تشهد على ذلك المخطوطات وبعض نصوص المراسلات)[5]، فقد اختار عدم التدخل مباشرة في الجدال، لأنه كان يرى أنه ثمة رابطة بين المسألة التي نوقشت ومشروع التيوديسيا الذي كان يشتغل عليه. يعلم لايبنتز أن وجود الشر مع وجود إله خيّر وعادل، يمثل إحدى الصعوبات التي تجسم على أحسن وجه، حسب كاتب **المعجم**، الصراع بين العقيدة والعقل، وتبعا لذلك، إخفاق العقلانية اللاهوتية. فعلا، للنقد البايلي تأثير أوسع. إنه لا يهدف إلى إظهار عدم اتفاق النورين (الطبيعي والصادر عن الوحي)، لاسيما حين يتعلق الأمر بمسألة الشر، لكنه يهدف إلى الحط من قيمة أية محاولة لتبرير وجود الله تبريرا **عقلانيا**. فعلا، ما قيمة خطاب عن الله وعن طبيعته وفعله، مبادئه ونتائجه مستمدة كليا من العقل، وتبدو مناقضة للوحي؟ سيضطر مَن يريد الدفاع عن «قضية الله» إلى حل هذا النزاع الظاهري، باعتباره مقدمة ضرورية لا محيد عنها[6]. لذلك، يبدأ لايبنتز مؤلفه [**التيوديسيا**] بـ **مقال حول اتفاق العقيدة مع العقل**. إن هذا الخطاب إنما هو مسلك الدخول الضروري والمقدمة الأساسية **للتيوديسيا** التي لا يمكن أن تنجح أو حتى أن تكون ممكنة، إلا إذا تم الإقرار بأن سلطة العقل مؤكدة في المجال اللاهوتي، وإنه لا يمكن لحقائقه أن تناقض البتة حقائق العقيدة.

رهان مجابهة لايبنتز لبايل يتجاوز إذن مسألة الشر، وإطار الجدال مع جاكولو (Jaquelot) ولوكلار (Le Clerc). فعدم الاتفاق بين الفيلسوفين في مسألة علاقة العقيدة بالعقل لا يعبر فقط عن تباعد جزئي، بل يكشف تعارضا أساسا. فبايل يمثل موقفا فلسفيا ولاهوتيا مناقضا مناقضة تامة لموقف لايبنتز: إنه موقف شكي يخدم إيمانية[7] تخرّب اللاهوت العقلاني بإعلانها عجز العقل الجذري على أن يقرر، بصورة نهائية، حقيقة ما، وانفصاله نهائيا عن العقيدة. فالتناقض (الظاهري) بين العقل ومبادئ الدين وأسراره، ينضاف إلى تناقض (داخلي) للعقل مع نفسه، باعتبار أنه «مبدأ خراب وليس مبدأ بناء». فالعقل [حسب بايل]، ليس قادرا

4 انظر كتابنا (بول راتو: مسألة الشر عند لايبنتز، أسس التيوديسيا وبناؤها، باريس، أونوري شومبيون، 2008، ص 402-416

Voir notre livre La question du mal chez Leibniz. Fondements et élaboration de la Théodicée, Paris, Honoré Champion, 2008, p. 402-416

5 ملاحظات حول بايل، رسالة إلى جاكولو، 6 أكتوبر 1706، نشرها غاستون غرويا. Les notes sur Bayle, la lettre à Jaquelot du 6 octobre 1706 publiées par Grua in Textes inédits, PUF, 1948, 1998, p. 62-68

انظر أيضا الرسالة المزامنة إلى بازاين Basnage (ذكرت سابقا) والتي تقدم الحجج الأساسية التي نجدها في مقالة تمهيدية حول ملاءمة العقيدة مع العقل. Discours préliminaire de la conformité de la foi avec la raison (DC). (يذكر لاحقا: مقالة تمهيدية...)

6 يقول لايبنتز في مقالة تمهيدية...، "أبدأ بالمسألة الأوليّة المتعلقة بتطابق العقيدة مع العقل وباستعمال الفلسفة في اللاهوت، لأن لها شديد الأثر في المادة الأساسيّة التي سنتناولها، ولأن السيد بايل قد طرح هذه المسألة في كل كتاباته» Voir DC, § 1, GF-Flammarion, p. 50

انظر أيضا التيوديسيا الفقرة 1.

7 أن تكون هذه الإيمانية حقيقية أو مفترضة لا يغير شيئا هنا، مادام يظهر الحدود التي يجد المسيحي نفسه مقيدا بها حين يستخرج نتائج العقيدة التي يتبناها.

على غير «بث الشكوك والمراوغة يمينا ويسارا لتأبيد جدال» من شأنه «تعريف الإنسان بغياهب ظلماته وعجزه وضرورة التجائه إلى مصدر إلهام آخر»[8].

[يضيف بايل]: «لا بد للفلسفة أن تخضع إلى سلطة الله، وأن تخفض جناح الذل للنص المقدس».[9] يقضي إعلان الخضوع للكلام المنزل على كل مقاومة، وعلى كل تقريض، وهو لا يخدم «قضية الله»، وذلك بتكريس بون بين العقيدة والعقل يدعم الالتباس (في العبارات والمفاهيم)، كما يمنع كل شكل من أشكال المحاكمة أمام محكمة العقل. وعلى النقيض من ذلك، فإن **التيوديسيا** تستجيب إلى مطلب العقلانية إذ تنبني على إثبات وحدة دلالة الحقيقة والأفكار والمبادئ في الله وفي الإنسان. إنها ليست سوى نتاج عقل متصالح مع العقيدة ومع نفسه، مجسمة بذلك المقولة التي يدافع عنها لايبنتز ويعتبرها أساسية: «إننا نتخلى عن استعمال العقل حين يتخلى الله عن حكمته أو الإنسان عن عقلانيته»[10].

فمع بايل ولايبنتز [نجد أنفسنا] حيال تصورين متعارضين عن العقل وعن علاقته بالسر الديني(1)، في منحى تقابلي، فهما تأويلان لطبيعة المعرفة اللاهوتية ولمعنى التمييز التقليدي بين **ما فوق للعقل \وما هو ضد العقل praeter/contra rationem.** إنهما تأويلان مختلفان يتواجهان(2) وهما أخيرا طريقتان مختلفتان لتناول مسألة الشر، وفهم ما يمكن أن يعنيه انتصار العقيدة في المجال المسيحي(3)[11].

1. تصور العقل ومسألة وحدة الحقائق

ثمة اختلاف بين بايل ولايبنتز حول التصوّر الذي يكوّنه كل واحد منهما عن العقل وعن دوره. إن هذا الاختلاف حاسم، لأنه يفسر، في مجمله، مواقفهما المتباينين حول علاقة الفلسفة بالوحي. فللعقل عند بايل معنيين[12]. إنه في الآن نفسه ما يمنحنا مبادئ المنطق والميتافيزيقا والأخلاق الكونية والضرورية (على الرغم من أن هذه المبادئ في معجم بايل تعود إلى الضمير[13]). والعقل عنده هو تلك الملكة التي نستنتج بواسطتها معرفة من أخرى، ونستخرج نتائج بعض القواعد أو تبعات ونتائج افتراض يمكن أن يكون مؤسسا على

---

8 بيار بايل، المعجم التاريخي والنقدي، مقال "المانويين" الملاحظة D Dictionnaire historique et critique (DHC), article «Man - chéens», remarque D. (يذكر لاحقا المعجم)

9 بيار بايل، مواصلة لأفكار مختلفة مرسلة إلى دكتور من السوربون أو في المذنب، Continuation des Pensées diverses sur la comète (CPD), § LVI, Œuvres diverses (OD), La Haye, 1727-1731, III, p. 265b.

10 أن تكون هذه الإيمانية حقيقية أو مفترضة لا يغير شيئا هنا ما دام بايل يوضح ما مآل المسيحي حين يستخرج نتائج العقيدة التي يعتنقها.

11 ملاحظة المترجم: الأرقام (1) (2) (3) تشير إلى فقرات المقال الثلاث الواردة لاحقا.

12 انظر بيار بايل، رسائل نقدية جديدة، Nouvelles lettres critiques (NLC), XVII, § 6, OD II, p. 282b, à propos de l'établi - sement des sociétés.

13 "[...] لا تعدو الأخلاق الطبيعية إلا أن تكون سوى نور يشع في النفس، والذي بفعل قوته لا يوجد أي إنسان عاجز عن التعرف عن مبادئ الأخلاق العامة [...] إن هذا النور الطبيعي الذي نتعرف بواسطته على مبادئ الأخلاق يدعى الضمير [...]". بايل، نسق الفلسفة الموجز، ص. 260. الضمير هو نظام الغريزة. (Système abrégé de philosophie, Morale, OD IV, p. 260a)

قواعد أخرى غير القواعد «العقلانية» ([مثلا:] رأي مسبق أو جاذبية معتقد أو حس داخلي). وإن لم يكن ثمة سبب للشك في مبادئ العقل حسب المعنى الأول، فإنّ استنتاجات العقل حسب المعنى الثاني، يمكن أن تكون خاطئة أو أن تؤدي إلى إحراجات (Aporie). يجدر بنا إذن أن نميّز بين العقل ومصادراته، باعتبارها مستقلة عن الأهواء وعن عملية التعقل؛ أي عن استعمال العقل حين يكون في خدمة الميولات، ويخضع إلى الدوافع العاطفية[14]. ومهمة الفيلسوف هي الكشف عن النتائج العبثية التي يؤدي إليها هذا العقل المؤسس على دوافع لا عقلية، والكشف عن تناقضاته مع قواعد العقل «المحض»، إن صح التعبير.

ليس العقل إذاً ذاك المرشد الذي يؤدي دائما إلى الحق. علاوة على ذلك، ليس العقل مقوّم الحقيقة الوحيد، مادام الضمير (الذي يعني في الآن نفسه القلب والإرادة) والغريزة [15]، بالنسبة إلى بايل، يمثلان أيضا مصدرين شرعيين لليقين. يتعيّن كذلك، أن نعترف أن المعارف التي نحصلها عن طريق العقل في مجال التفكير ليست في نفس متانة المبادئ العملية وصلابتها، والتي نستلهمها من الضمير في مجال الأخلاق والعقائد التي تقرها إرادتنا في مجال الدين. لا يمر قبول بنود العقيدة عن طريق ملكة الفهم وفحص الحجج المساندة والحجج المعارضة، بل يعتمد على «حجج الشعور»[16] وعلى طاعة الله والثقة في تنزيله. واليقين الذي يحصل للمؤمن أقوى من ذاك اليقين الذي تمنحه الهندسة، رغم أنّها تمنح يقينا من نوع آخر. فلا يرى المؤمنون أن نقيض ما يؤمنون به مستحيل، مثلما هو الشأن فيما يتعلق بالمواضيع التي برهن عليها رياضيا. إن ذلك لا يعني أن عقيدتهم مهزوزة.

[يقول بايل]: «ينبغي إذن ألا ننقد لاهوتيا يؤكد أننا مقتنعون تماما بحقيقة المذاهب التي يعلن عنها قساوستنا، رغم أن العلل التي يعتمدون عليها لا تُخوِّل معرفة استحالة وجود الأشياء على وجه آخر»[17].

لا يصدر الوثوق عن وضوح الفكرة وتميّزها مثلما هو الأمر في الفلسفة، ولكن من إحساس داخلي. غير أن «هذه الجاذبية أحيانا ما تكون قوية إلى درجة تجعلنا نختار رأيا في الوقت الذي تكون أسباب شكنا فيه، حينما نعتبره بصفة عامة، تبدو أكثر احتمالا من أسباب الاعتقاد».[18]

14"[...] بوسعنا فعلا تحديد المبدأ الذي يعدلنا ويسيطر علينا كما يلي: ركام من الأفكار المسبقة والأهواء يعرف كيف يستنتج". بايل، رسائل نقدية جديدة.(NLC XXII, § 8, OD II, p. 328b)

15 يذكر جون لوك سورال أن مصطلح الغريزة، حين يستعمله بايل، لا ينبغي أن يفهم بالمعنى المعاصر؛ أي الدافع لكنه يشير إلى "معتقدات طبيعية تلقائية") ذكره في العقل الفاتك، دراسة حول الفكر النقدي عند بايل، جمعتها إيزابال دلبلا وفيليب دي روبار

Jean-Luc Solère in La raison corrosive. Études sur la pensée critique de Pierre Bayle, réunies par Isabelle Delpla et Philippe de Robert, Paris, Honoré Champion, 2003, p. 105, note 67).

16 ذكر سابقا، المعجم، "سبينوزا".DHC, «Spinoza», rem. M

17 ذكر سابقا، المعجم، "بوليو".DHC, «Beaulieu», rem. F

18 بيار بايل، إجابة على أسئلة قروي، Réponse aux questions d'un provincial (RQP), II, chap. XCIX, OD III2, p. 702a.

الحق ليس دائما واضحا ومتميزا. وما كان أكثر وثوقا ليس بالضرورة عقلانيا. تتمثل المفارقة البايليّة في معارضة أولوية العقل في نظام المعرفة والفعل، والمطالبة بوظيفته النسقية اللامحدودة في فحص المذاهب والمعتقدات والممارسات. فليس العقل ملكة معرفة الحقيقة بامتياز بقدر ما هو ملكة نقد[19]، تهدم أكثر مما تبني، مثلما كانت بنيلوب (Pénélope) تفكك في الليل ما تحيكه في النهار.[20] إن العقل هو أداة الشك والتشويش. إنه شبيه بالحامض الفاتك الذي لا يكتفي بتطهير الجرح، لكنه ينهش اللحم السليم وينفذ إلى حد العظم والنخاع ما لم يوقفه شيء. فعلا: «الفلسفة تدحض أوّلا الأخطاء، وإن لم نوقفها في هذه النقطة، فإنها تهاجم الحقيقة: وحين نتركها تفعل ما تشاء حسب شهواتها، فإنها تبتعد إلى درجة تجعلها غير قادرة على معرفة موقعها، ولا على العثور على ركيزة تعمد عليها»[21].

لا بدّ أن نؤكد أن هذا التحقيق المعقد - لأنه لا يتقيد بحدود - ليس ناجما عن استخدام سيء للعقل، وإنما عن ميل العقل الذاتي. فنزعة العقل الطبيعية، منذ تحرره، تحمله على الريبية. إنها ريبية نسبية، مادام ثمة، حسب بايل، معارف لا تقبل الشك (وهي على المستوى النظري، «المفاهيم العامة» وعلى المستوى العملي، قواعد الأخلاق الكونية). ورغم ذلك، فإننا نخطأ إن تصورنا أن الإيمانية المعلنة من قِبَل بايل على المستوى الديني، ستسمح تباعا، بتسريح مجال يمكن فيه للعقل أن يمارس، بطريقة شرعية وواثقة، حقوقه ووضع حقائقه؛ ذلك لأنه مهما كان المجال الذي ينسحب عليه العقل، فهو يكوّن صعوبات تؤدي دائما إلى إحراجات، بما في ذلك في المجال الرياضي Mathématique، حيث تكون المعارف أكثر وثوقا ووضوحا؛ فليس العقل في تناقض مع المعتقدات وأسرار العقيدة وحسب، بل هو قبل كل شيء، في تناقض مع ذاته. لذلك، فإن أنوارنا، عوض أن تدعّم بعضها البعض، وتتلاقى، فهي، في كثير من الحالات، تتعارض. يقول بايل: «هل تريدون حججا دامغة حول اقتسام اللاتناهي؟ سيمنح لكم النور الطبيعي إجابة عن السؤال. وهل تريدون حججا ضد الاقتسام إلى ما لا نهاية؟ سيمنح لكم النور الطبيعي أيضا إجابة. وإن أردتم البقاء على حياد، فلن يتوان بأن يسلحكم بكل ما تستحقونه [لأجل ذلك]»[22].

---

19 وهو معنى العقل الثالث الذي يمكن أن نجده عند بايل

20 المعجم "بونال" الملاحظة DHC, «Bunel», rem. E

21 نفس المرجع، "أكوستا"، ملاحظة «Acosta», rem. G.

22 بيار بايل، حديث ماكسي وتيميست. Entretiens de Maxime et de Thémiste (EMT), I, chap. VII, OD IV, p. 20a-b.

يضيف بايل: "بوسعي أن آتي بأمثلة أخرى". ورغم ذلك، فقد بين جيانلوكا موري (Gianluca Mori) حدود هذه المقارنة بين إحراجات اللاهوت (أي التناقض بين مبادئ العقل بعض مبادئ العقيدة) وإحراجات العقل البشري حول مسائل الفلسفة الطبيعية، حيث «تتعلق مفارقة العقل بمصادرات وضوحها ليس محل شك مثل تعريف ديكارت للمادة باعتبارها امتدادا». وحول مواضيع مثل الانقسام والامتداد والفراغ. انظر Jean-Luc Solère, «Scepticisme, métaphysique et morale: le cas Bayle», in Les «Éclaircissements» de Pierre Bayle, édition des «Éclaircissements» du Dictionnaire historique et critique et études recueillies par Hubert Bost et Antony Mc-Kenna, Paris, Honoré Champion, 2010, p. 501-508.

يظهر العقل إذن، في الآن نفسه، قويا من جهة قدرته على سحب نقده المدمر على كل شيء، وعاجزا من جهة عدم اعتماده على وثوق نهائي، مما من شأنه - في نهاية الأمر - تضليلنا. يقول بايل: «كلما تعمقت في دراسة الفلسفة كلما وجدت فيها ارتيابا: فالفارق بين الطوائف لا يخص إلا بعض الاحتمالات بالزيادة أو النقصان، ولم أجد فيها مَن بلغ هدفا، والمُرجح ألا أحد سيُحقق فيها هدفا أبدا»[23].

فإن كان مستحيلا وضع نسق فلسفي مكتمل ودون ثغرات، فلا مجال إلى السقوط في بيرونية[24] جذرية، وهي في الواقع، عقيمة وغير قابلة للتطبيق. وفي نهاية المطاف، فإن معيار أحسن نسق (علاوة على تناسقه الداخلي واتفاقه مع التجربة)، إنما هو معيار سالب: فأحسن نسق هو النسق الذي نتبناه مع بعض التحفظ وبصورة وقتية، من كان قادرا على مجابهة الاعتراضات والصعوبات؛ أي أنه أكثر الأنساق التي يمكن الدفاع عنها. وفي هذا الاختيار النهائي تدخل اعتبارات نظرية، ولكن أيضا دوافع ليست عقلانية بالمعنى الحرفي، وهي مرتبطة بالتفضيل والإحساس والمتعة والعادة.[25] يمنع مثل هذا التصوّر **النسبوي** للمعرفة، كل دوغمائية ممكنة[26]، يلازمه تصوّر نقدي للعقل يُقربه إلى «روح الجدال»، أكثر من تقريبه من ملكة الحكم الجيد القادرة على التمييز بين الحق والباطل، والتي نسميها عادة الحسّ السليم.

يرفض لايبنتز في الآن نفسه، التصوّر الذي يقدمه بايل والتعريف التقليدي للعقل. فليس العقل بالنسبة إليه، ملكة «التعقّل بصورة جيدة أو سيئة»[27] ولا «هو آراء وأقوال الناس ولا العادات التي تعودوا عليها للحكم على الأشياء حسب سير الطبيعة العادية»[28]، وإلا فإن العقل بهذا المعنى، سيقع فعلا في الخطأ. ليس العقل أيضا مقوّم الحقيقة أو أحد مصادرها. إن العقل عند لايبنتز هو «الحقيقة التي نعرفها، والتي يجعل ارتباطها بحقيقة أخرى معروفة بأقل درجة، نقبل هذه الحقيقة الأخيرة»[29]. لهذا التدقيق أهمية: فليس العقل الحقيقة، بل سببها ومبدأ معقوليتها. ليس العقل حقيقة من بين حقائق أخرى، بل ارتباط الحقيقة بحقائق أخرى. ففي معناه العام يشير العقل إلى سلسلة الحقائق الكاملة والمتواصلة التي تتضمن بهذا المعنى، حقائق الوحي. لذلك، فإن الاختلاف بين العقيدة والعقل، لا يمكن أن يكون إلا نسبيا. يكمن الاختلاف قبل كل شيء في أن الوحي لا يقدم حقائق **مرتبطة** بما يتضمنه العقل المتناهي؛ أي العقل الذي نفهمه هذه المرة بالمعنى الخاص؛ أي هذا الجزء من الحقيقة التي يمكن للفكر البشري إدراكها بوسائله الخاصة، دون تدخل لأي نور خارق

23 بايل، رسالة إلى جاكوب 20 ماي 1681..À Jacob (29 mai 1681), Nouvelles lettres II, p. 135

24 ملاحظة المترجم: نسبة إلى بيرون؛ Phyrron والمقصود هو الريبية.

25 بيار بايل، حديث ماكسي وتيميستEMT, I, chap. V, OD IV, p. 16b

26 نفس المرجع، Gianluca Mori, op. cit., p. 40

27 لايبنتز، في مقالة تمهيدية...، DC, § 65, p. 89.

28 نفس المرجع، § 23, p. 66.

29 لايبنتز، مقالات جديدة حول ملكة الفهم البشري، Nouveaux Essais sur l'entendement humain، IV, chap. XVII, § 1-3, GF-Flammarion, p. 375.

للعادة[30]. تلك هي الفجوة التي تجعلنا عاجزين على فهم حقائق العقيدة والبرهنة عليها. وإذا كان العقل معرفة العلة، فإن العقيدة تختلف عنه من جهة جهلنا كيفية وجود الأسرار وأسبابها، وهي أسرار تأمرنا العقيدة باعتناقها. إن التمييز بين حقائق العقل وحقائق العقيدة تظهر أخيرا من خلال خاصية داخلية محض: من جهة مصدرها وطريقة تحصيلها؛ فإما بطريقة طبيعية وعادية أو بطريقة خارقة للعادة والطبيعة. ولا يمكن لهذه الاختلافات أن تؤدي إلى إعادة النظر في **ملاءمتهما** الأساسية؛ أي في تماهي الشكل أو الطبيعة: بمعنى أنها **في الآن نفسه وبطريقة متساوية** حقائق.

عقائد الدين حقائق منزلة من الله إلى البشر بواسطة الكتاب المقدس، وهي لا تدخل في هذه سلسلة الحقائق المحدودة والمتناهية التي تكوّن عقلنا، لكنها لا تخرج عن العقل الكوني (الذي لا يختلف عن ملكة الفهم الإلهي). لذلك، فالعقل والعقيدة لا يعودان إلى نظامي حقيقة مختلفين، وإلا فإن عبارة الحقيقة ستكون ملتبسة. ففي نظام المعقولية الوحيد، تكون الحقائق الدينية بنفس عقلانية الحقائق الأخرى. تبعا لذلك، يَمَّحي التمييز بين العقيدة والعقل...حيث يصبح كل استفهام حول تلاؤم الحقيقتين، استفهاما حول ملاءمة العقل لنفسه. لنقل ذلك بصياغة أخرى: إن **الملاءمة** لا تعني التماهي في كل شيء، ولكن الاتفاق المؤسس على التماهي الصوري، وهو تماه لا يرفض الفوارق: سواء كانت هذه الأخيرة مؤسسة على معايير خارجية (أي الطريقة التي وقع بها اكتساب الحقائق) أو على خاصيات داخلية وشكلية (التمييز بين الحقائق الأزلية والحقائق الوضعية والحقائق الحادثة أو حقائق الوقائع). ففي هذا المضمار فقط، يكون التمييز بين **العقل** بالمعنى (الخاص) **والعقيدة** ذا وجاهة، ويمكن أن يظهر بينهما «تعارض» محتمل (غير التعارض المنطقي).

إنّ تأكيد لايبنتز على وحدة الحقيقة يجعله يحيل علاقة العقل بالعقيدة، ليس إلى نظام حقيقة مختلف جذريا عن نظام حقيقة أخرى (كما هو الحال في نظرية الحقيقة المزدوجة المستوحاة من الرشدية أو اللوثيرية luthérienne[31])، ولا إلى علاقة العقلاني بالعبثي، ولكن، وفي نفس النظام الايبستيمي (العقل الكوني)، إلى علاقة قابلة للفهم والبرهنة في تعارض مع ما ليس قابلا للفهم والبرهنة، أو ما هو مستبعد الحدوث. فمادام عدم التناقض الداخلي والخارجي يمثل شرط الحقيقة الضروري ووحدتها، فإن ما يؤخذ على أنه نزاع بين العقيدة والعقل لا يمكن أن يكون إلاّ ظاهريا، أو صادرا عن تعارض غير منطقي. فدون التخلي عن الاتفاق الأساسي بين الحقائق، ودون إنكار خصوصية الحقائق المنزلة (وهي **فوق العقل**)، فإن الأمر يتعلق إذن بتحديد طبيعة هذا «التناقض» الذي لا يمكن أن يكون **ضد العقل**.

30 مقالة تمهيدية...، DC, § 1.

31 لايبنتز، منشورات الأكاديمية، A, VI, 4-C, p. 2459

لذلك يعمد لايبنتز إلى التمييز في خصوص حقائق العقل، بين الحقائق التي يسميها **أزلية** «وهي ضرورية ضرورة مطلقة، حيث يؤدي نقيضها إلى تناقض»، «ويؤدي بنا نفيها إلى «سخافات» (absurdités)[32]، وبين حقائق العقل التي يسميها **وضعية**، وإن هي إلا القوانين التي اختار الله منحها للطبيعة، والتي يمكنه تعطيلها لأسباب مرتبطة بنظام النعمة. في حين أن الحقائق الأزلية تعود إلى ضرورة منطقية وميتافيزيقية وهندسية. فالحقائق الوضعية التي تكوّن الضرورة الفيزيائية (نظام الطبيعة)، إنما هي حقائق عرضية تعود إلى ضرورة أخلاقية فقط، ما دام الله قد وضعها بطريقة حرة بسبب تلاؤمها، مسندا في ذلك على مبدأ الأفضل. (principe de meilleur) فالمعجزات والأسرار (مثل التثليث والتجسد) التي تعلمنا إياها العقيدة لا يمكن أن تكون مناقضة للحقائق الأولى [أي الحقائق الأبدية]، وإلا فهي تفقد صفتها كحقائق؛ أي أنها تصبح خاطئة. ولكن يمكن لهذه الحقائق أن تكون مناقضة للثانية (أي للحقائق العرضية). فالمعجزات والأسرار استثناءات خارجة عن سياق الطبيعة العادي. ينسحب احترام مبدأ عدم التناقض بشكل منتظم على جميع الحقائق، وهو لا يحتمل أي استثناء[33]. الحقائق الطبيعية وحدها، بسبب عرضيتها، وما يفرضه التناسق الكوني، إنما هي موضوع استثناءات. غير أن التناقض أو الاستحالة على المستوى الفيزيائي لا يؤدي إلى تناقض أو استحالة على المستوى المنطقي والميتافيزيقي. فاتفاق الحقائق لا تشوبه شائبة.

وعلى الرغم من ذلك، وجب أن نتأكد أننا بصدد خرق فعلي لنظام الطبيعة، وأننا بصدد معجزة حقيقية، ولسنا بصدد حادث غير عادي فقط، ومناقض لما هو مقبول وموافق للظاهر. وهكذا، لا يمكن اعتبار الأفعال التي يقوم بها الله بواسطة الملائكة، معجزات بالمعنى الدقيق (لأنها تتبع طبيعتها الملائكية) [34]، غير أنها معجزات بالنسبة إلينا. أما بالنسبة إلى المعجزات المشهود بها، فإن تناقضها مع الضرورة الفيزيائية؛ أي مع قوانين الطبيعة، وصفتها المحتملة وغير المفهومة، لا يجعل منها شيئا مستحيلا أو عبثيا من الناحية المنطقية[35].

ومن أهم مؤاخذات لايبنتز على بايل، اعتباره أن ما عَجزنا على فهمه أو البرهنة عليه أو ما بدا لنا محتملا، إنما هو، في الآن نفسه، لاعقلاني (مناقض للعقل)، أو قل، إننا عاجزون عن معرفة كيفية اتفاقه

32 مقالة تمهيدية...§ 2, p. 51

33 وهكذا، فإن التثليث ليس مناقضا للمبدأ الذي يقر أن "إذا وجد شيئان متطابقان لشيء ثالث، فهي متطابقة فيما بينها» إذ «حين نقول إن الأب هو الله وإن الابن هو الله وأن الروح المقدس هو الله، وأن نقول مع ذلك إنه لا يوجد إلا إله واحد، مع أن هذه الشخصيات الثلاث تختلف عن بعضها البعض، لا بد أن نحكم أنه ليس لكلمة الله نفس الدلالة في بداية العبارة وفي نهايتها. بالفعل، فالله يعني تارة جوهرا إلهيا، وطورا شخصيّة إلهيّة». نفس المرجع، § 22, p. 65

34 التيودسيا، Théodicée, § 3, § 249.

35 "[...] فكل الناس يتفقون على أن الخوارق ضد الظاهر، وهي بعيدة عن أن تكون محتملة، حين لا ننظر إليها إلا من جهة العقل. ولكن يكفي ألا تتضمن [هذه الخوارق] شيئا عبثيا." (DC, § 28, p. 68). وكما يلاحظ ذلك ميشال فيشان Michel Fichant «نجد هاهنا الصياغة اللابنتزية لتعريف العقيدة التي قدمها القديس بول، العبريون Hébreux, XI, 1 والتي تصبح في النسخة اللاتينية للإنجيل» Fides est argumentum rerum non apparentium «(ذكر في «الحقيقة والعقيدة والعقل في التيودسيا» مقال بول راتو» قراءات وتأويلات للمقالات في التيوديسيا لغوتفريد ويلام لايبنتز، Vérité, foi et raison dans la Théodicée»,») (ينشر لاحقا) Studia Leibnitiana, Sonderheft, Franz Steiner Verlag, in: Paul Rateau (éd.), Lectures et interprétations des Essais de Théodicée de G. W. Leibniz, 2011).

مع العقل الكوني؛ بيد أن هذين التمييزين أساسيين: يتمثل التمييز الأوّل في توضيح الفرق بين أربع عمليات ذهنية يخلط بايل بينها كثيرا؛ أي **التفسير والفهم والبرهنة والمرافعة**، والتمييز الثاني الذي يرفضه فيلسوف روتردام (Rotterdam) هو التمييز بين ما هو **فوق العقل** / وما هو **ضد العقل.**

2. المعرفة اللاهوتية: التفسير دون الفهم والمرافعة دون البرهنة وتأويل الفارق بين ما هو فوق العقل / وما هو ضد العقل praeter/contra rationem

حين يوضح لايبنتز أن **تفسير** معتقد **والرد** على الاعتراضات لا يفترض بالضرورة أن نكون قادرين على **فهمه فهما** تاما **والبرهنة** عليه، فهو لا يكتفي بإبراز خلط المصطلحات الذي يقوم به بايل، بل يشير أيضا إلى الطريقة التي، حسب رأيه، يتعين بمقتضاها تسيير مناظرة (controverse) فلسفية: ما هي واجبات المرافع (المدافع عن أطروحة) المختلفة، وما هي واجبات المعارض (الذي يجادله)، وما الذي يمكن أن يطالب به، بطريقة شرعية، كل طرف من الآخر في مجال الحجج؟

تفسير شيء ما هو كشف معناه، حيث نعرف عما نتحدث (الما هو). لذلك، نفسر سر التجسيد (l'Incarnation) مثلا حين نقول إنه المعتقد الذي يتحد بمقتضاه الابن (le Fils) بالطبيعة البشرية مع محافظته على طبيعته الإلهية. ما المقصود بهذه الوحدة؟ يمكننا أن نكوّن فكرة عن هذه المسألة من خلال **مشابهة** (analogie) تتعلق بوحدة النفس والجسد، غير أن التفسير لا يمكن أن يتجاوز هذه المعرفة التشبيهية (analogique)[36]. ويتعذر فهم السر، لأننا عاجزون أن نقول **كيف** قامت مثل هذه الوحدة. ففهم شيء ما، هو واستيعابه كليا وبصفة تامة: أي تكوين فكرة واضحة ومتميزة ومطابقة لما هو ذلك الشيء وما يتضمنه.[37]

في الحقيقة، لا تتضمن هذا المشابهة مزيدا من الإيضاح ما لم نُكوِّن فكرة أكثر بيانا حول وحدة النفس والجسد الواقعية والميتافيزيقية، حيث [نفهم أنهما] يكونان حاملا واحدا. ففي نهاية الأمر، تتمثل المشابهة في تقريب سر بآخر، وفي التعرف على وجود العلاقة نفسها بين أطراف مختلفة (أ هي ب مثلما ج هي ح)، دون التمكن من تحديد طبيعتها، ولا الذهاب إلى أبعد من وضع توفيق على المستوى الظاهراتي (فثمة تماثل بين حالات النفس وحالات البدن مثلما ثمة «علاقات منسجمة» بين حالات المادة وروح المسيح[38]). لذلك، يمكن أن تكتسي المشابهة دلالة في الاتجاهين: من الممكن تفسير التجسد وسر القربان المقدس (Eucharistie) بالمقارنة مع وحدة النفس والجسد، كما يمكن تفسير هذه الوحدة نفسها بالعودة إلى تصوّر **الحضور** اللاهوتي (وهو تصوّر مُبهم في حد ذاته)... الذي يُستعمل في تفسير هذه الأسرار (لاسيما القربان المقدس). إن ذلك لا

36 مقالة تمهيدية...، الفقرة 55

37 لا يتعلق عدم الفهم بأسرار العقيدة فقط ولكن أيضا ببعض الصفات الحية في الفيزياء. انظر مقالة تمهيدية... .54 ,§ 41 ,§ 5 ,§

38 لايبنتز، ملاحظة من كاتب نظام التناسق المسبق الوضع حول مسألة في مذكرات لريفو في مارس 1704. Remarque de l'Auteur du Système de l'Harmonie préétablie sur un endroit des Mémoires de Trévoux de mars 1704, GP VI, p. 595-596.

يعني أن اللاهوتي والفيلسوف لا يفهمان ما يقولان حين يتحدثان عن الوحدة. فالكلمة ليست غير ذات معنى (مجرد صوت flatus vocis). تحيلنا الوحدة على اتفاق واقعي أو قل، إنه اتفاق قابل للمعاينة. وعلى أي حال، فهو ملائم للمظاهر. غير أن مفهوم الوحدة غير قادر على تمكيننا من فهم ما يكوّن الرابطة الأساسية، والوحدة الواقعية بين جوهرين. فمشابهة وحدة النفس والجسد بحضور المسيح في الخبز وبوحدة المسيح في الطبيعة البشرية تصبح مشابهة بشيء مبهم Un je ne sais quoi.

زد على ذلك، فإنّنا عاجزون على البرهنة على الأسرار؛ أي أننا عاجزون على تقديم برهان يُمكّن من بيان العلّة **الماقبليّة** (معرفة **اللماذا** le pourquoi)، وإلا سنكون قادرين على فهمها. غير أننا رغم ذلك، قادرون على الدفاع عنها ضد الاعتراضات (Les objections)، ببيان أنها لا تتضمن تناقضا منطقيا أو ميتافيزيقا، وأنها لا تناقض إلا المظاهر أو سير الطبيعة العادي (حالة المعجزات). كيف لنا أن ندافع عمّا لا نفهمه؟ ومنذ لا يكون ثمة مجال للشك[39] في أصالة الكتابة المقدسة وطبيعتها الصادرة عن الوحي، تصبح المعتقدات التي تتضمنها غير قابلة للدحض، ويتعذر وجود اعتراض ضدها غير قابل للدحض، وإلا فإن إيماننا بها سيكون بلا أساس، ويتعين وقتها الاعتراف بخطئها؛ فلا يمكن لقضيتين متناقضتين أن تكونا صحيحتين في الآن نفسه. من الضروري إذن، أن نتبع **الاعتراضات**. فإما أن يكون الاعتراض برهانا شكلا ومضمونا، يقدم برهنة تظهر عبثية الاعتقاد. ينبغي وقتها دحض ذلك الاعتقاد واعتباره غير صادر عن الله[40]. فعلا، تعود الدوافع التي قُدمت إلى حد الآن إلى وثوق أخلاقي، وعليها أن تخضع إلى وثوق مطلق محدد ببرهنة[41]. يكفي حينئذ أن نُقيم الدليل بأنها تافهة ومهزوزة: أي أنها تنبني على مظاهر، وشبهات أو على اعتبار النظام الطبيعي وحده.

في نظر لايبنتز، من المؤكد أن التمييز الواضح بين **التفسير والفهم والبرهنة والمرافعة** أهم ما ميّز جداله مع بايل وجاكولو ولوكلار. أدى هذا الجدال إلى وضع نظام نقاش دقيق[42]، كما أنه مكّن من تفادي الخلط وسوء الفهم من خلال تحديد دور كل طرف بدقة: يتعين على المرافع [أي المدافع عن أطروحة أو فكرة] القيام بالتفسير والرد على الاعتراضات. وعلى المعارض أن يبرهن أن الأطروحة خاطئة أو مستحيلة. يكون وقتها من السهل أنهاء الخصومة، إذ سيظهر رهانها الحقيقي بوضوح، وهو لا يتمثل في فحص المعتقد

39 طبعا، لا تطرح مسألة ملاءمة العقيدة للعقل لو قبلنا بالوحي، وهي مسألة تختلف عن مسألة أسباب الاعتقاد. فبيان «دواعي الإيمان» (الفقرة 5 من مقالة تمهيدية...) التي تؤسس حقيقة الدين، بصورة تجعل سلطة الكتاب المقدس في منأى عن جميع أشكال الانتقادات أمام محكمة العقل. فبدون هذه الحجج، وهي لا تمنح غير وثوق أخلاقي، لا شيء يمكن أن يميز الدين المسيحي عن «الديانات الخاطئة» (الفقرة 29 من مقالة تمهيدية...). للاعتراضات التي تم فحصها إذن علاقة بمحتوى المعتقد (المناقض، حسب بايل، لمبادئ العقل) وليس لشرعية أساسه النصي (والذي من المفترض أنها منتهية)

40 والمعتقد الذي يقاومه العقل ويدحره من قبل العقل هو معتقد ليس غير قابل للفهم وحسب، بل يمكننا القول إن لا شيء أيسر فهما وأكثر جلاء من عبثيته نفس المرجع§ 23, p. 66

41 نفس المرجع، "ويمكن لحجج صحّة الدين التي لا تمنحنا إلا وثوقا أخلاقيّا أن تُوازن أو يقع تجاوزها عن طريق اعتراضات توفّر وثوقا مطلقا لو كانت هذه الاعتراضات مُقنِعة وبرهانيّة تماما.» Ibid., § 5, p. 53

42 وضع لايبنتز القواعد الحقيقية للنقاش في الفقرات 79-72 من مقالة تمهيدية...

ذاته ولا في تحديد البراهين الوضعية؛ أي إفهام (faire comprendre) ما ليس قابلا للفهم، والبرهنة على ما ليس قابلا للبرهنة (عن طريق العقل)، ولكن الحكم على المقبولية (la recevabilité) وصرامة الحجج المقدمة ضد [ذلك المعتقد]. موضوع النقاش الأساسي إنما هو في الواقع، الاعتراض، كما هو الشأن في محاكمة، حيث يتعيّن تقييم إذا ما كانت الإدانة مؤسسة وواثقة أم لا. ولكن، لبيان أن الإدانة لا تستقيم، لا ضرورة أن يكون المدافع [عنها] لاهوتيا ممتازا، وأن يتدخل في لطائف لاهوتية. يكفيه معرفة قواعد المنطق المشتركة واستعملها استعمالا حسنا. كان بايل يأمل أنه يأتي يوم يكون فيه شخص ما قادرا على الرد على هذه الصعوبات ضد العقيدة، والتي يعتبرها منيعة. ورغم ذلك، فليس مجديا [كما يقول لايبنتز] انتظار:

«رجل ذو ذكاء متوسط، منتبه بعض الشيء، ويستعمل بطريقة دقيقة قواعد المنطق العادي، فهو قادر على الرد على الاعتراض الأكثر إحراجا ضد الحقيقة، لا سيما حين يصدر الاعتراض من العقل وحده، أو حين ندعي أن ذلك الاعتراض برهنة [...] إذ يكفي أن نفحص الحجة بالاعتماد على القواعد، فسنجد دائما طريقة لكشف عيب في الشكل، أو وجود مصادرات لم تقع برهنتها عن طريق حجة سليمة».[43]

وعلى نقيض ما صرح به كاتب **المعجم**، بوسعنا إذن أن نعرف منذ هذه الحياة، ملاءمة حقائق العقيدة مع العقل الكوني[44]. لا يمكن للعقل معرفة ما يتجاوزه [ما **هو فوق العقل**] ولكن يتعين عليه بالضرورة دحض **ما هو ضده**؛ أي ما كان خطأه موضوع برهنة. إن التمييز بين عمليات الذهن الأربع مرتبطة كثيرا بالتميز الكلاسيكي بين **ما هو فوق العقل/ وما هو ضد العقل** (praeter/contra rationem) الذي يدافع عنه لايبنتز ضدّ بايل. فعلا، يعتبر بايل أن تعاليم الوحي تتجاوز قدرات العقل، بل وكثيرا ما تناقضه. وبالأحرى، فإن هذا التمييز المعتاد في اللاهوت مؤسس على التباس:

يقول بايل: «أسرار الإنجيل فوق العقل كما يقال عادة، ولكنها ليست مناقضة للعقل. أعتقد أننا لا نمنح العقل المعنى نفسه في الجزء الأول من هذه المصادرة وفي جزئها الثاني. ففي الجزء الأول نقصد عقل الإنسان، وفي الجزء الثاني العقل بصفة عامة. فإن افترضنا أننا نفهم من عبارة العقل بصفة عامة، أو العقل الأسمى، أو العقل الكوني الذي هو في الله، فسيكون صحيحا أيضا أن الأسرار الإنجيلية ليست فوق العقل، وهي ليست ضده. ولكن حين نفهم في الجزء الأوّل من المصادرة وفي جزئها الثاني العقل البشري، فإني لا أرى كثيرا صلابة هذا التمييز، إذ أكثر الناس أرثوذوكسية يُقرون أننا لا نعرف ملاءمة أسرارنا لأحكام الفلسفة. يبدو إذن أنها ليست ملاءمة لعقلنا، غير أن ما يبدو غير ملائم لعقلنا يبدو مناقضا له. وبالمثل، فإن ما يظهر غير ملائم للحقيقة يبدو مناقضا للحقيقة [..]»[45].

43 نفس المرجع. § 27, p. 68.

44 نفس المرجع§ 60, p. 85

45 بيار بايل، إجابة على أسئلة قروي، الفصل 2 RQP, II, chap. CLIX, OD III2, p. 833a-b.

ومن جهة العقل الكوني، فإنّ التمييز ليس ذا معنى، وهو بالنسبة إلى العقل البشري خاطئ. فمن يريدون المحافظة على حقيقتين - رغم عدم ملاءمتهما الواضحة لبعضهما - «يفترضون أن الصعوبة صادرة عن افتقارنا للأنوار، في حين أنه كان عليهم أن يقولوا إنها تأتي أساسا من أنوارنا التي نعجز عن ملاءمتها للأسرار.»[46] بالنسبة إلى بايل، المشكل ليس ناتجا عن محدودية عقلنا وعجزه عن فهم ما يتجاوزه؛ أي من عدم امتلاكنا ما يكفي من الأنوار. فلدينا ما يكفي من أنوار لنرى أن السرّ الديني لا يتفق مع مبادئ الفلسفة... وامتلاك أنوار أوسع لا يغيّر شيئا، ولا يحوّل الأسرار إلى مسائل أقل تناقضا ! وفي هذا الشأن، فالعيب لا يكمن في ضعف العقل، إذ إن حقائق العقيدة لا تتعلق فقط بمسائل مذهبية أو وقائع ليس للعقل ما يقوله في شأنها أو أنه يجهلها، مادام بعضها يناقض بطريقة صريحة نتائجه. (وهكذا، فإن مبدأ التثليث يناقض المصادرة المنطقية التي تقول إن شيئين مماهيين لشيء ثالث متماهية فيما بينها).

بالنسبة إلى لايبنتز، يبقى التمييز بين **ما فوق العقل وما ضده** صالحا. ويتعين فهمه بمقتضى نوعين من الضرورة (الضرورة الهندسية والضرورة الفيزيائية) اللتين أبرزهما: فما هو ضد العقل، هو ما ناقض الحقائق الأزلية؛ أي ما كان مستحيلا منطقيا وميتافيزيقيا (وإذن، فهو لا يمكن أن يكون صحيحا). وما هو فوق العقل، فهو ما كان «مناقضا فقط لما ألفنا تجربته أو فهمه» أو ما كان أيضا مستحيلا من الناحية الفيزيائية[47]. لذلك، وكما يقول بايل في بعض نصوصه[48]، لا يمكن للأسرار أن تكون ملائمة «للعقل الإلهي» أو للعقل «بصورة عامة»، دون أن تكون ملائمة للعقل البشري الذي لا يعدو أن يكون غير مراوغة، بالنسبة إلى من قَبِل (مثل بايل!) وحدة التصوّرات والحقيقة[49]. ولكن، وجب، حسب تقدير مؤلف **التيوديسيا**، وشريطة ألا نتخلى عن وحدة الحقيقة فنقع في خلط المصطلحات (كنتيجة للالتباس)، الاعتراف بأن لا شيء يمكن أن يكون مناقضا للجزء (هذا الجزء من العقل الذي نمتلكه؛ أي مجموع الحقائق التي نفهمها) دون أن يكون مناقضا للكل (العقل الكلي الذي هو سلسلة كل الحقائق المنيعة). فعقلنا لا يختلف عن عقل الله في الطبيعة بل في الدرجة، «مثلما تختلف قطرة ماء عن المحيط، أو كما يختلف المتناهي عن اللامتناهي»[50].

وأخيرا، فإن لايبنتز يعارض الغموض المفتعل الذي يعمد إليه بايل في التمييز بين ما هو فوق العقل وما هو ضد العقل. فالعقل المقصود إنما هو العقل البشري، وما يعجز العقل على فهمه (أي الأسرار) يتجاوزه،

---

46 نفس المرجع chap. CLXVII, note x, p. 853b

47 مقالة تمهيدية... الفقرة 23

48 بيار بايل، إجابة على أسئلة قروي RQP, II, chap. CLIX, OD III2, p. 833b ; EMT, II, chap. XXXI, OD IV, p. 91a-b.

49 ليس مؤكدا أن تمييز المتناهي عن اللامتناهي يسمح حقا بتجاوز الصعوبة وإنقاذ الوحدة (كما تصور ذلك جون لوك سولار في نصه "بايل وإحراجات العقل البشري" (ذكر سابقا 91-93). فالتناقض المنطقي مع مبادئ وتصورات العقل البشري ليس محدودا أو ظاهريا. فإن كان التناقض حقيقيا، فهو لا ينمحي حين نحيله إلى العقل الإلهي بمجرد مرورنا من المتناهي إلى اللامتناهي. إن من يرفض الالتباس، لا يتمثل الفارق بين المتناهي واللامتناهي هاهنا إلا في الدرجة، وهو لا يغير إذن شيئا في طبيعة التناقض.

50 مقالة تمهيدية... الفقرة 61

وهو رغم ذلك ليس مناقضا له، وليس مناقضا لحقائقه ومبادئه. هنا أيضا، ليست ملاءمة العقيدة للعقل مفترضة أو مُؤَمَلة، إنها مثبتة ومعروفة معرفة واثقة. ولمعاينة ذلك، فلا حاجة إلى تفسير العقائد المسيحية تفسيرا كاملا يذهب إلى حد الإجابة عن سؤال «**الكيف؟**» و«**الماذا؟**». فمن المؤكد أن الحقائق الناتجة عن الوحي لا تنتمي إلى صنف الحقائق التي بوسعنا إدراكها بصورة طبيعية، غير أنها تكوّن معها سلسلة فريدة ومتصلة لا يمكن أن تتضمن تناقضا منطقيا أو ميتافيزيقيا[51].

3. انتصار العقيدة أم انتصار العقل؟

في نظر لايبنتز، لا يمكن أن يوجد اعتراض ضد العقيدة يعجز العقل عن رده. ورغم ذلك، فماذا نقول عن الشر الذي لا يلائم وجوده ظاهريا الكمال الإلهي؟ يعود بايل دائما إلى هذا المشكل لأنه يوضح، حسب رأيه، بطريقة أكثر دقة من غيره (ورهانه نظري أكثر من كونه عمليا) استحالة التوفيق بين تعاليم الدين المسيحي والحقائق التي ندركها بواسطة النور الطبيعي. تصدم العقيدة مبادئ الأخلاق الكونية، إذ تُعلِمنا أن الإنسان يعاني من خطيئة لم يقترفها بنفسه (خطيئة آدم)، وأن الله، رغم خيريته وقداسته، لا يمنع السقوط، وهو يَلعن أكثر مما يُنجي. ومن جهته، فإن العقل يصل إلى نتائج مناقضة للوحي: [أي إلى] الثنائية المانوية أو الإلحاد. أما الأولى (المانوية)، فرغم صعوباتها النظرية - ولا مجال لإنكارها - فهي تمتاز بإعفاء الله من مسؤولية الخطيئة، وهي أكثر قدرة على التعبير على التجربة من افتراض مبدأ خير وحيد. ويعترف الثاني (أي الإلحاد) بعبثية التفكير في كائن كامل هو مصدر الشر، ويستخرج كل النتائج المترتبة على ذلك... وفي كلا الحالتين، (المانوية والإلحاد) فالدين الذي يدعو إلى إلاه واحد، يقع في تناقض.

تمثل مشكلة الشر المعضلة الأكبر في كل لاهوت عقلاني. وهكذا، فإن بايل يجيب جميع أولئك الذين يدعون أن الله يسمح بوجود الشر لكي يزيد في إظهار حكمته، [بقوله] إن مثل هذا القول يؤدي إلى مقارنة الله برب أسرة يترك أطفاله يكسرون أرجلهم لكي يظهر للمدينة براعته في تطبيبهم، أو مقارنة الله بحاكم يسمح أن تكثر الانتفاضات، وتعم الفوضى مملكته لكي يمجد نفسه بعد ذلك من خلال قدرته على إخمادها[52]!. لا وجود لأيّ قاض في محكمة يعذر رجلا لم يقم بخطيئة، لكنه توقعها بل ويسّرها عوض منعها، وصرح أنه لم يطلبها بل سمح بها فقط، ولم يقم بها بنفسه.

يخصص بايل في الجزء «المذهبي» لكتاب **التيودسيا** تبرير سماح الله بوجود الشر بالاستناد إلى العلل **الماقبلية**. ففي إطار الرد [على بايل][53] (وهي وجهة النظر المفضلة في **الخطاب التمهيدي**)، يكتفي

51 نفس المرجع، الفقرة 63

52 بيار بايل، المعجم..."بوليسيان" الملاحظة E. DHC, «Pauliciens», rem.

53 حول هذين الجزأين من التيوديسيا وحول الاستراتيجيات والحجج والبراهين الخاصة التي يستعملها كل طرف انظر كتابنا الذكور سابقا، الفصول 5-7

لايبنتز بالتأكيد على عيوب هذه المقارنات الأنتروبومرفية؛ فوحدة معنى العدل لا تلغي المسافة الفاصلة بين الإنساني والإلهي، إذ إن كونية قواعد العدل لا تعني أنه بوسعنا أن ندافع عن قضية الله كما ندافع عن قضية رجل في محكمة. وبصرف النظر عن أن «المدعى عليه» ليس من درجة الله نفسها، فلا يمكن تقييم وزن الشكوك وقيمة الاتهامات التي سجلت ضده بالطريقة نفسها [التي تقيَّم بها أعمال الله]. ففي قضية إنسانية، ليس من الممكن دائما الوصول إلى الحقيقة، حيث كثيرا ما يضطر القاضي إلى «تعديل نفسه على القرائن والاحتمالات، وبخاصة على **التخمينات** أو **الأفكار المستبقة**»[54]. غير أن هذه الطريقة في تناول المسألة لا تناسب حالة الله مادام النقاش حول الأسرار قد بيّن أن [صفة] الاحتمال ليست معيارا لقبول [قضية]. فإن كان يمكن ظاهريا للذنب أن يبدو على أنه الحقيقة في محاكمة إنسانية، فذلك غير كاف لإدانة الله، إذ يُظهر الفحص المعمق للواقعة، إن كان بوسعنا القيام به، أنه ثمة أسباب عُليا، وعادلة جدا تسمح بوجود الشر. [يعني ذلك] إذن إن العدل الإلهي لا يمثل استثناء لحق العقول الكوني (droit universel des esprits)، لأن السبب وطريقة الحكم مختلفتان في هذا الشأن اختلافا كليا[55].

لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار الشخص المدان، وبالاستناد إلى المقارنات، يمكن أن نتوصل إلى رسم ملامح مقاربة أكثر صحة. فحين نتحدث عن الخطيئة بالنسبة إلى الله، فكأننا نتحدث عن رجل بريء متهم بجريمة أو مُحسن متهم باقترافه بعض السرقات[56]. فأيا كانت المظاهر التي تشهد ضده، والقرائن والشهادات التي تدينه، فلا بد من اعتبار الاتهام افتراء وسخافة، لأنه أبعد ما يكون عن الحقيقة. ينبغي إذن أن يتغلب إيماننا بالفضائل الكبرى على العلل المهزوزة. فيصبح بذلك من الممكن تحقيق الشروط التي فرضها بايل، وتبرير [ما يقوم به] الله حتى وإن استندنا إلى الممارسات القضائية المستخدمة في محاكمنا، حيث يسود المعيار الأكثر وضوحا. فليس من **المؤكد** فقط أن من طبيعة من كان لامتناهي الخيرية لا يمكن أن يكون مصدر الشر، ولكن ذلك هو الأكثر **احتمالا** أيضا.

فمن خلال هذه المقارنات والاعتراضات التي يضعها بايل على لسان الريبيين والمانويين والملحدين، فهو يسعى إلى بيان أنه لا وجود لحل ممكن للصراع بين العقيدة والعقل. فليس للمسيحي إلا مخرج واحد، وهو الاستسلام إلى سلطة كلام الله. وهو الحل المقبول بل والمعقول. وما الإيمانية إلا نتيجة ضرورية لعقل أبرزت ممارسته الحرة دون عوائق، وظيفته الحقيقية: وهي عدم تأسيس الحقيقة وإبراز التناقض وإلقاء الضوء على الإحراجات وبث الشك. يؤدي العقل إلى العقيدة، باعتبارها الحد الذي عليها أن تلتزم به، وهو يأمر بالتخلي عن الأنوار الضعيفة حين يعلن الله القدير حقيقة عليا. يقول بايل:

---

54 مقالة تمهيدية... § 32, p. 70.

55 نفس المرجع، الفقرة 35|

56 نفس المرجع الفقرتين 36-37

«[...] إذ ما الذي يمكن أن نفعله يكون أكثر ملاءمة للعقل المستقيم، والحس السليم من أن نحب طاعة الله أكثر من حبنا لطاعة البشر، سواء تعلق ذلك بالأخلاق العملية أو بمعتقد تفكير؟ [...] وبمعنى ما، ليس ثمة عقيدة أكثر بناء على العقل من تلك التي تبنى على أنقاض العقل»[57].

ذلك هو ما سماه نيكول (Nicole) «انتصار سلطة الله على العقل البشري»؛ هل أن ذلك فعلا انتصار؟ ألا يتعلق الأمر بانقلاب مفاجئ، وبانتصار من نوع أنصار بيريوس (Pyrrhus) [المتضمن لخسائر فادحة]؟ فالعقيدة لا تنتصر إلا ظاهريا، حين تقع في تناقض مطرد، وتحاصر من كل جهة باعتراضات يقال إنها منيعة، لأنها تطرح مواضيع نعلن أنها غير قابلة للحل. يبدو واضحا أن العقل قد انتصر، لكنه يرفض تاجه إجلالا لأولية الله المطلقة واحتراما لسلطة الكلام المنزل... لا يتخلى المسيحي عن العقل لأنه يمكن أن يكون قد انهزم، بل لأنه مضطر إلى الاختيار بين الفلسفة والدين، وعليه أن يتخلى عن الأولى وفاء للثاني.

بالنسبة إلى لايبنتز «العقل عطاء من الله مثل العقيدة تماما». وتؤدي إرادة المعارضة بينهما إلى افتعال مصارعة الله لنفسه[58]. فإن كان انتصار العقيدة المزعوم على العقل واقعيا (أو كان ممكنا) فسيكون هزيمة، تماما مثلما سيكون الانتصار المزعوم للعقل على العقيدة، إذ إن ذلك سيؤدي إلى تدمير فكرة الحقيقة نفسها. فالعقيدة لا تنتصر أبدا على العقل، لكنها تنتصر على المقولات الخاطئة، وعلى الأفكار المسبقة وعلى المظاهر[59]. تصدم أسرار الدين طريقتنا العادية في النظر، ويفترض قبولها، التخلي عن فهمها فهما كاملا. فانتصار العقيدة لا يمكن أن يكون إلا انتصار العقل، الذي يتجاوز حاجتنا للبراهين وترددنا في قبول ما ليس قابلا للتصديق ولا للفهم[60].

فلا تتمثل المسألة في معرفة إذا ما كانت إيمانية بايل صادقة أم لا، بل فيما إذا كان هو الطرف الوحيد الذي يمكن - في نهاية المطاف - لمسيحي تَبنيه. فالطابع الحصري للزوج (الفلسفة أو الدين) لا يمكن إلا أن تصدم اللاهوتيين «العقلانيين». فحين يؤكد لايبنتز بأن مؤلف **المعجم** «يريد إسكات العقل بعدما دفعه إلى الكلام أكثر من اللازم»[61]، فإن لايبنتز يدين خطأين ناتجين عن الإفراط نفسه. دفع بايل العقل إلى الحديث أكثر من اللازم دون استعمال التمييزات الضرورية (التفسير، الفهم، البرهنة، المرافعة، ما هو فوق العقل\ما هو ضد العقل). بعد ذلك أسكته بقسوة قبل مساعدته على حل الصعوبات التي ساهم بنفسه في خلقها. إنه لم ير إلا عمل العقل السلبي ولم يدرك حركته الخاصة، إذ حين نحطم في الآن نفسه الأطروحة ونقيضها، فإن

57 بيار بايل، إجابة على أسئلة قروي، RQP, II, chap. CLXI, OD III2, p. 836b.

58 مقالة تمهيدية... الفقرة 39

59 نفس المرجع، الفقرة 42

60 نفس المرجع، فقرة 43

61 التيوديسيا، المقدمة ص 39

العقل: «[...] يَعِدنا وقتها بشيء عميق، شريطة أن نتبعه على مدى قدرته على التعمق، ولكن ليس بروح المجادلة بل برغبة جامحة في البحث، وكشف الحقيقة، وهو تمشٍّ يكافأ دائما بنجاحات كبيرة»[62].

يتوقف الريبيون والإيمانيون قبل الأوان. إنهما يخضعان لجاذبية هذا العقل الذي يبدو متخليا عن جميع ما وضعه، من دون أن يستندوا إلى العقل في تحليلاته الواعدة.

يميز لايبنتز موقفه عن ثلاثة مواقف مختلفة: موقف **العقلانية المتعجرفة** أو **التقريضية المرتبكة** التي تدعي البرهنة على الأسرار بواسطة العقل، وهي محاولة فاشلة (لأنها مستحيلة) بل هي مضرة للعقيدة[63]، وموقف **الإيماني الدوغمائي** الذي يريد التضحية بكل مبادئ العقل من أجل الاعتقاد، وذلك بالإعلان عن عقيدة لاعقلانية في جوهرها. وهو تصوّر يعزز صفوف أعداء الدين من خلال الإساءة إلى العقائد الدينية[64]. يميز لايبنتز موقفه أيضا من موقف **الريبيين** الذين يعتبرون أن التناقض بين العقيدة والعقل تناقض لا يمكن تجاوزه. يفهم هذا الموقف الأخير بثلاث طرائق: الأولى هي **البيرونية**، وهي تتمثل في الاكتفاء بهذا التعقيد دون الإفصاح عن أي مخرج لتجاوز التناقض. الطريقة الثانية، وهي ذات منحى «عقلاني» تتمثل في الاعتراف بأن التوفيق بين العقيدة والعقل ممكن في سياق العقل الكوني، غير أننا عاجزون نظريا أو عمليا (في الوقت الراهن) عن تحقيقه. الطريقة الثالثة، وهي ذات منحى «إيماني» وتؤدي إلى الحسم لصالح الإيمان، حتى وإن اقتضى ذلك التخلي عن وحدة الحقيقة والاعتراف بالتلبس، وذلك من خلال وضع نظام حقائق خاصة بالعقيدة، لا مجال إطلاقا لاتفاقها مع العقل. يبدو بايل الذي يرفض تعليق الحكم الذي تؤدي إليه البيرونية بالمعنى الدقيق، متأرجحا بين صيغتي البيرونية الأخيرتين.

يتمثل موقف لايبنتز في قبول نظام واحد من الحقيقة وهو نظام وحيد، رغم أنه يفكر في الفوارق التي توجد بين الحقائق (حسب طبيعتها ونمطها ومصدرها). يفترض موقف لايبنتز أن صفة العقيدة الأساسية تكمن في عقلانيتها، وعدم تناقضها المنطقي أو الميتافيزيقي. ورغم ذلك، لا تقتضي هذه العقلانية أن تكون فصولها وعقائدها موضوع فهم تام وبرهنة كاملة. لنقل إذن، إن أسرار الدين محفوظة. وتتجاوز العقيدة العقل في [قدرتها] على اطلاعنا على حقائق، بدونها، ليس بوسعنا بلوغها مادامت لا تنتمي إلى السلسلة التي تكوّن عقلنا. ويبقى الوحي، رغم ذلك جزئيا: إننا لا ندرك إلا بعض الحقائق العالية ونجهل كيف ترتبط هذه الحقائق بالحقائق التي نعرفها. يفسر هذا الانفصال الذي لا يوجد في العقل الكوني، دهشتنا بل وحرجنا. فليست الدرجات الوسطى الناقصة علامة تعارض أو تناقض، بل هي فقط نقيصة عقل سيقع تداركها في

62 مقالة تمهيدية... الفقرة 80
63 نفس المرجع، الفقرة 59
64 نفس المرجع، الفقرة 23

الحياة الأخرى. بالنسبة إلى لايبنتز، العقيدة ليست مناقضة للعقل، وهي ترنو إليه. إنها انتظار ورجاء: هو انتظار فهم كامل ورجاء اكتساب ارتفاع عقلي يجعلنا نرى أخيرا سلسة الحقائق الكاملة والمتصلة.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018